شهريّات

بقلم رئيس التحرير

١ ـ مع غسان كنفاني

حين لقيت غسان كنفاني ، للمرة الاولى ، شتاء ١٩٥٨ في الكويت ، كنت شبه مذهول بحدّة ذكائه وشدّة طموحه .

وقد طرح عليّ غسان بضعة اسئلة في حديث اجراه لجريدة كويتية كان يعمل بها . واعترف انها كانت من احرج الاسئلة التي طرحها عليّ صحفيّ او اديب منذ اصدرت مجلة « الآداب » . وبالرغم من الضيق الذي خلفته هذه الاسئلة في صدري ، فقد تجمّلت بالصبر ، ورحت املي الأجوبة بهدوء على ذلك الشاب الذي أحببت فيه الجراة والحيوية وتوسّمت له شأنا في مقبلات الايام.

وجاء غسان كنفاني آلى بيروت ، فتوثّقت بيننا عرى صداقة لم يكن نتاجه في القصة والرواية والبحث الا ليزيدها عمقا . وفي تلك الفترة بدأ غسان يكشف صفحات رائعة من ادب المقاومة كانت هي المدخل الحقيقي للتعرّف الى هذا النتاج الاصيل الذي يصدر عن ادباء المقاومة في فلسطين المحتلة . ثم اقترحت عليه ان يؤلف كتابا في الموضوع ، فوافاني به بعد فترة قصيرة ، وكان « ادب المقاومة في فلسطين المحتلة » اول كتاب جامع ، وافضل مرجع للدارسين ، من عرب واجانب ، آلذين كانوا يبحثون في ادب المقاومة العربي .

وكان تكاثر المهمات على غسان وعليّ يباعد ما بيننا تدريجيا ، حتى كانت تمر أشهر عديدة من غير ان نلتقي . ولكننا كنا نتحدث عبر التلفون احاديث قصيرة ، تعليقا على مقال كتبه او اثر قرأه لي .

وكان آخر لقاء لي بغسان ، يوم زارني منذ اشهر قليلة اثر خروجه من السجن ، حيث اعتقل بسبب مقال اعتبرته السلطة اللبنانية ماسًّا بأحد الملوك العرب .

وقد اتى غسان يشكر لي اني ارسلت باسم اتحاد الكتّاب اللبنانيين برقية الى رئيس الجمهورية تحمل احتجاجنا على تدبير الاعتقال وتعدّه طعنة لحرية الفكر التي هي عنوان لبنان وميزته الاولى .

وقال لي غسان : ولكننا سنبقى معتقلين في ذواتنا ما دامت ايدينا مشلولة .

وسألته : هل أصبحت قريبا من اليأس ، شأن كثير من المثقفين العرب ؟

فأجاب : ان ما تقوم به فصائل المقاومة ، على قلّته وضعف تأثيره ، يحميني من اليأس .

وصمت قليلا ثم أضاف : ولكننا اذا لم نضاعف الجهد والعمل ، فسوف نموت .

ونهض يختار بعض الكتب الاخيرة آلتي اصدرتها دار الآداب في الفكر السياسي والايديولوجي وبعض الروايات المترجمة ، وقال وهو يغادر المكتب ، مشيرا الى الكتب بين يديه :

ـ هذه هي التي تدفعنا الى مزيد من الصمود ، حين تصور لنا عالما اجمل من عالمنا ، عالما نطمح الى بناء مثله .

واقترحت عليه ان ترزم الكتب التي بين يديه ، ولكنه ابى ومضى سريعا . وعند باب المصعد آلذي رافقته اليه، سقطت الكتب من بين يديه ، فانحنيت معه اساعده على جمعها . وحين استقام نظر اليّ مبتسما ، حزينا وقال :

ـ فعلا ، أصبحت اخشى ان تصاب يداي بالشلل !

فربتّ على كتفه وفتحت له باب المصعد ، وانا اقول له :

ـ عهدي بك انك بعيد عن اليأس ؟

قال غسان كنفاني :

ـ صحيح . يجب ان نظل بعيدين عن اليأس .

وهبط به المصعد .

* * *

حين بلغني نبأ استشهاده بانفجار سيارته فيه ، قاومت طويلا دمعة في عينيّ كانت ما تزال مترسّبة منذ خمس سنوات ، منذ سمعت جمال عبدالناصر يؤكد الهزيمة في حرب ٥ حزيران .

ومع ذلك ، فقد مسح اصدقاؤك الكثيرون دموعهم يا غسان ، لانهم مؤمنون عميق الايمان بانهم يجب ان يظلوا بعيدين عن اليأس ، وان يبذلوا كل جهد يملكونه ليحولوا دون ان تصاب ايديهم بالشلل .

٢ . «ما تبقى لكم»

أعدّ رواية غسان كنفاني « ما تبقى لكم » افضل انتاجه .

وقد قرأتها مخطوطة حين كنت عضوا في لجنة للتحكيم شكلتها جمعية اصدقاء الكتاب منذ سنوات للنظر في افضل رواية لبنانية كتبت ذلك العام .

ومنذ ايام عدت اقرأها مرة اخرى .

وانا أعتقد الآن انها ربما كانت أعمق رواية تصوّر مأساة فلسطين . وميزتها الاولى انها لا تعالج هذه المأساة بالسرد التاريخي المألوف ، بل بطائفة من المواقف يعيشها الابطال رموزا بعيدة المغزى ، شديدة الايحاء . انها تصوّر الهجرة والنزوح ، والخيانة واليأس ، والنضال والصراع من اجل العودة ، والامل في النصر ، كل ذلك عبر احداث بسيطة ولكنها متشابكة ومتقاطعة . ونهاية الرواية ، التي تروي مصرع زكريا (الخيانة) على يد مريم (فلسطين) وفي الوقت نفسه توحي بانتصار حامد (جيش التحرير) على اليهودي ، تبلغ غاية الروعة .

وفي التكنيك الروائي ، تسجل « ما تبقى لكم » خطوة جديدة هامة في تطوّر الرواية العربية . ان الاحداث فيها مكثفة بشكل ايحائي عميق ، وطرق السرد واساليب التحليل (الارتدادات الزمنية ، تيار الوعي ، التداعي الفكري والشعوري ، واحيانا التداعي القائم على الكلمة والحرف والرائحة واللون) كل ذلك يتخذ شكلا هندسيا على غاية التناسق والتناغم يشير الى موهبة غسان كنفاني الفنية ورؤيته الروائية التي هي نسيج وحدها في الرواية العربية . صحيح ان الشكل الذي تتبعه الرواية ليس جديدا اذا قيس بالرواية الاجنبية (فقد سبقه اليه كبار كتّاب الغرب ، ولا سيما فوكنر وسارتر ودأريل وسواهم) ولكن المؤلف العربي وفّق الى حد بعيد في استغلال هذه الاشكال الفنية لصالح روايته استغلالا ماهرا يطمس كل نزعة تقليد او محاكاة ليوكد الاقتناع في اخر المطاف بأن الضرورة الفنية وحدها هي التي املت على غسان كنفاني هذا التكنيك الروائي البارع .

لقد فقد الادب العربي الحديث بغياب غسان ، فنانا ممتازا كان مقدّرا له ان يدفع الرواية العربية شوطا كبيرا الى العالمية .

٣ . سارتر : موقف جديد !

ذات مرة ، قال لي الشاعر الصديق محمود درويش انه ياخذ عليّ ، في موقفي من جان بول سارتر اثر عدوان ٥ حزيران ، اني كنت انفعاليا جدا حين ابرقت الى الكاتب الفرنسي اشجب تأييده لاسرائيل واعلن عن ندمي لكوني قد ترجمت عددا من مؤلفاته الى العربية ، واعدّ موقفه خيانة لمواقفه السابقة في مناصرة قضايا الحق والعدل ونضال الشعوب على اختلافها ضد الاستعمار والاحتلال .

قال لي محمود درويش : ان يكون سارتر قد أيد اسرائيل ضد العرب فهذا شأنه ، وما كان ينبغي لك ان تترك عقده الذنب تستولي عليك . ان نقل الفكر الاجنبي هو بذاته عمل كبير ، ايا كان رأينا بمواقف اصحابه . .

ثم سألني محمود : وما عسى يكون موقفك اذا تطوّرت افكار سارتر واصبح يشجب اعمال اسرائيل ؟

هذا السؤال الذي طرحه عليّ الصديق الشاعر ذات مرة ، اتى يفرض نفسه هذا الشهر حين اطلعني الصديق جورج طرابيشي (وقد ترجم بعض كتب سارتر) على خبر نشرته جريده « موند » (١) الفرنسية انقله فيما يلي :

القدس (من مراسلنا) ـ اثارت رسالة التضامن التي بعث بها السيدجان بول سارتر الى والده عيوربانيومن المستنكف ضميريا (٢) ، هذه الرسالة التي اوردتها الصحافة الاسرائيليه على نطاق واسع ، اثارت ردود فعل ، سلبية في معظمها ، تجاه الفيلسوف الفرنسي . وفي هذه الرسالة يؤكد السيد سارتر ان « المحكمة سيحق لها الافتخار اذا برات المتهم الذي هو معرّض للسجن بضعة اعوام لكونه قد قام بهذا العمل الشجاع والمحسوس : أن يرفض الخدمة في جيش كان في الاصل دفاعيا ، فاصبح هجوميا اذ يؤكد نفسه جيش احتلال » ويضيف سارتر : « ان هذا العمل يفضح بذلك سياسة الحكومة الاسرائيلية التي تجعل كل مسعى حسني نحو السلام امرا مستحيلا ».

وتتهم جريدة « الهميشمار » لسان حزب المابام (الاشتراكي اليساري) تتهم سارتر بانه ادان اسرائيل « على نحو ما يدينها العرب والسوفيات » وتضيف الجريدة

---

(١) عدد ١٨ حزيران (يونيه) ١٩٧٢ .

(٢) Objecteur de Conscience وهو المعارض للخدمة العسكرية لاسباب سياسية او دينية .

« ان هذا التغير المؤسف في موقف المفكر المشهور لا يشرّفه ويثبت انه تنكر لمواقفه السابقة تجاه اسرائيل التي ما تزال تناضل من أجل بقائها » .

هذا هو النبأ الذي نشرته جريدة « لوموند » ،

وسأكذب على نفسي وعلى القراء اذا زعمت انـي لم أفرح لهـذا النبأ . ولكني حريص الآن على الاّ أكـون « انفعاليا » مرة اخرى !

لقد كنت اتوقّع دائما ان يغير سارتر موقفـه المؤيد لاسرائيـل . وكانت متابعتي لفكر سارتر ومواقفه تجعلني على يقين من انتأييده لاسرائيل قبيلعدوانها في ٥حزيران وبعده انما كان وليد انخداع انجرّ اليه هو ايضا معالعشرات من المفكرين في فرنسا وفي العالم كله تحت تأثير الدعاية الرهيبة التي قامت في تلك الفترة بأن اسرائيل معرّضة للتدمير والزوال ، وان سكانها سيلقى بهم فـي البحر . وكنت قد عبّرت لسارتر في برقيتي عـن أسف المثقفين العرب لان يكون قد سقط هو ايضا ضحية الخـــداع الاسرائيلـي .

ثم قرأت في « الاهرام » حديثا اجراه الاستاذ لطفي الخولي مع سارتر في باريس (وقد نقلت « الآداب » هذا الحديثفي حينه) وفيه يحاول المفكر الفرنسي ان يشرح موقفه ويؤكد تأييده لحق العرب في فلسطين . ولكنني لم اقتنع بصدق هذا الموقف آنذاك ، وكنت من المطالبين بأن يصدر سارتر بيانا صريحا تنشره الصحف الفرنسية، مقابل البيانات التي كان قد وقّع عليها بتأييد اسرائيل .

وانتظرنا طويلا ، ولكن لم نقرأ شيئا صريحا عن تبدل حقيقي في موقف مؤلف « دروب الحرية » ، بالرغم من ان بعض الكتّاب الفرنسيين وأصدقاء سارتر من العـرب كانوا يتحدثون عن ازمة ضميرية كان يعانيها سارتر مـن موقفه ذاك . وكان لديّ اقتناع داخلي بأن تأثير اصدقاء الكاتب الفرنسي من الكتّاب اليهود هو الذي جعله يتخذ ذلك الموقف . بل لقـد قرأت يوما كلمة للشهيـد غسان كنفاني في « الأنوار » بان كاتبا فرنسيا يهوديا هو كلود لانزمان ، عضو هيئة تحرير مجلة « الازمنة الحديثة » التي يشرف عليها سارتر ، كان قد هدّده بالانتحار امام عينيه اذا لم يوقع بيانا بتأييد عمل اسرائيل .. وسمعت كذلك ان سكرتيرة سارتر اليهودية كان لها تأثير عليه . واذكـر انني حاولت ان القى سارتر حين زار القاهرة قبل عدوان ٥حزيران ،ولكن كلود لانزمان الذي كان يرافقه ، وكـان يحدّد له لقاءاته ومواعيده ، حال بشتى الاساليب دون هـذا اللقاء ...

كل ذلك كان يميل الى الاعتقاد بأن تأييد سارتـــر لاسرائيل في تلك الفترة لم يكـن موقفا اصيلا نابعا مـن أعماقه ، بالرغم من دفاعه عن « الانسان اليهودي » ككائـن مضطهد . بل ان المواقف الاصيلة عنده هي تأييـد نضال الشعوب ضد الاحتلال والاستعمار ، كما نعرف من مواقفه من الجزائر وكوبا وفيتنام وسواها . وقد كان ذلك بالفعل عنوان مجد سارتر كأديب ملتزم مناضل ، وكـان هـذا أحد الاسباب الرئيسية التي جعلتني أقبل على ترجمة كثير مـن آثـاره الادبية .

والآن ، وبعد هذا الموقف الجديد الذي تكشف عنه رسالته الى والدة ذلك الشاب اليهودي المستنكف ضميريا، اين نحن من سارتر ؟

لقد كنا نتمنى دون ريب لو تغلب سارتر ، منذ البدء، على ذلك الانحراف الذي خضع له بدوافع لا ترتبط بأصالته الفكرية . ولكننا سنكون من التزمت والتحجر بقدر كبير اذا لم نرحّب بالتغير الواضح الذي طرأ على موقفه اخيرا. ولئن كانت جريدة « هميشمار » تصف هذا التغير بأنـه مؤسف لان سارتر تنكر لمواقفه السابقة تجاه اسرائيل ، فنحـن نعتبره تغيرا مشرّفا لانه هو التغير المنتظر لمفكر وقف وما يزال يقف كثيرا من كتاباته وسلوكه تأييدا لنضال الشعوب المظلومـة والمضطهدة .

على ان ذلك لن يجعلنا نغفل الاشارة الى بعض ما في موقف سارتر من اخطاء ورواسب . فسواء كانت الاشارة الى ان جيش اسرائيل كـان «في الاصل دفاعيا فاصبـح هجوميا » هي من تفكير سارتر ام من تفكير الشابالمستنكف ضميريا ، فانها تدل على خطأ كبير في فهـم تاريخ القضية الفلسطينية . ذلك أن جيش اسرائيل لـم يكـن يوما جيش دفاع ، وان جميع المنظمات اليهودية التي قامت في فلسطين قبل قيام اسرائيل كانت منظمـات ارهابية هجومية ، وان مطامع اسرائيل التوسعية تجعل جيشها دائما جيش عدوان وهجوم . ونحن نأمل ان يتمكن سارتر من التخلص من هذه الرواسب ، كما تخلّص مـن اوهامه في تقدير موقف اسرائيل .

واذا كنا نرحب بهذا التغير في نظرة سارتر ، فلأننا نعتبره كسبا للقضية العربية ولنضال الشعب الفلسطيني على مستوى عالمي . ونحن من المؤمنين بان استمرار الكفاح والمقاومة ، ومواصلـة النضال على كل صعيد ، سياسي وقتالي وفكري ، لا بد من ان تؤدي الى مزيد من المكاسب، مهما تضاعفت النكسات الموقتة والمصاعب العابرة .

سهيل ادريس